النص 9: التثاقف احتكاك بين الأفراد لا الثقافات

الملاحظة الأولى التي يجب إبداؤها هي أنه ليست أبدًا الثقافات هي التي تكون محتكة فيما بينها، بل الأفراد. إذا أخذنا الأفراد الواهبين فمن البيّن، مهما كانوا، معمرين، أو مبشرين، أو مغامرين، فإنهم لا يمثلون أبدًا ثقافاتهم بكليتها، ولكن فقط القسم الذي يسميه لينتون بالمركزي، بمعنى القطاع الثقافي الذي يتصل بمراكزهم وأدْوارهم المميزة في المجتمع الكلي. وهو ما يجعل، من جهة المستقبلين، أن عناصر كاملة من الثقافة الموجودة غير معنية. مع ذلك هنا أيضا الثقافة المستقبلة ليست سوى تجريد الأنتروبولوجيا. فما يوجد في الواقع هم الأفراد الذين لهم مراكز وأدوارا مختلفة، وإذن مواقف ومعايير للسلوك ومصالح خاصة. رجال ونساء، كبار وصغار، قادة سياسيون ومشعوذون، رجال أحرار ورجال الطوائف، بعض هؤلاء الأفراد يمكن أن يجدوا مصلحة في قبول سمات الثقافة الواهبة، آخرون على العكس يرون فيها خطرا كبيرًا على هيبتهم أو سلطتهم. وهو ما يجعل أن بعض السمات المستعارة تكون غير قادرة على أن تتعدى قطاعا من الثقافة المستقبلة (مثلا النساء أو رجال الطائفة) وتبقى متكيسة في هذا القطاع من غير أن تمتد إلى الجموع. بينما سمات أخرى لأنها مستعارة من قبل القادة السياسيين يمكنها أن تنتشر. لكن يجب أن نضيف أنه ربما ليس مقدار الاعتبار الخاص لبعض الأفراد هو الذي يلعب الدور مثل مكان هؤلاء الأفراد في البنية الاجتماعية، بمعنى أن الشبكات الاجتماعية هي التي يجب أخذها في الاعتبار أكثر من العناصر السيكولوجية الخالصة (اعتبار شخص، هبات كاريزمية).

روجي باستيد

Anthropologie appliqué

Payot, Paris, 1991, P. 49- 50

أ-التعريف بالكاتب:

ولد روجي باستيد Roger Bastide عالم الاجتماع والأنتروبولوجي الفرنسي عام 1898 في عائلة بروتستانتية في نيم. حاز الأستاذية في الفلسفة عام 1924، ثم مارس التدريس في مدارس ثانوية، وبعد أن نشر دراستين في علم الاجتماع الديني غادر إلى البرازيل عام 1938 حيث تمت تسميته كأستاذ في علم

الاجتماع في جامعة ساو باولو ، وقد شغل هذا المنصب حتى عام 1953. خلال هذه السنوات التقى بليفي–ستروس وبروديل وجورفيتش وهيرزجوفتش.

تلقى أصول التحليل النفسي واكتشف عمل بواس، فاهتم عن قرب بالمجتمع البرازيلي بكل أشكاله، وقام بأبحاث في مجالات بقي عمله متعلقا بها: الإتنولوجيا الدينية، ظواهر التثاقف والطب النفسي الاجتماعي. عند عودته إلى باريس، تمت تسميته مديرا للأبحاث في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا حيث كانت حلقته مكانا مميزا للقاء ولإعداد الشباب المثقفين في العالم الثالث.

عام 1957 ناقش باستيد رسالة الدكتوراه في الآداب، وعام 1959 تمت تسميته في السوربون أستاذا لكرسي الإتنولوجيا وعلم الاجتماع الديني، ثم أصبح أستاذ الإتنولوجيا العامة بالتنافس مع لوروا –غوران من العام 1962 حتى وفاته في باريس عام 1974، سيصبح أحد مسؤولي مجلة سنة علم الاجتماع.

نتيجة دراسته للديانات الأفرو–برازيلية، التي تركزت على الطقوس الدينية في باهيا، وبشكل عام على تحليل الديانات الأفريقية في البرازيل، كما تظهرها التغييرات في الزمان والمكان. توصل باستيد إلى عدم اعتبارها كملفات من الماضي أو كظواهر بالية بل كظواهر مثاقفة وتصحيح للقيم الثقافية الظاهرة في وضع تفاوت اجتماعي وعرقي عمل على فضحه.

دراسات باستيد تشكل مجموعة غنية جدا عن التقاطع بين الحضارات مثل دراسات ميترو عن الفودو الهاييتي ودراسات فيرجي وهيرزجوفتش عن البرازيل والداهومي (البنين حاليا).

يحتل باستيد مكانة خاصة في الأنتروبولوجيا الفرنسية وتعود هذه المكانة إلى البعد الأخلاقي لأعماله، إضافة إلى انتقائية معينة وانفتاح فكري يظهر في مواقفه العلمية ونظرياته واهتماماته الأدبية وتفضيله الواضح للمقدس على رجال الدين. هكذا نظم عام 1959 مؤتمرًا في باريس حول مفهوم البنية، حيث اثبت القطيعة بين نظرية غورفيتش في علم الاجتماع وبين البنيوية، حيث أتبث القطيعة بين نظرية غورفيتش في علم الاجتماع وبين البنيوية، إن استبصاره وتأملاته في تعقيد العلاقات بين المتأمل والمتأمل وكذلك في العلاقات بين اللاوعي والمجتمع تلتقي مع فكر ديفرو في كتابه "دراسات في الطب النفسي الإتنولوجي العام" الذي قدم له باستيد في نهاية حياته، وفي إطار مركز طب الأمراض النفسية الاجتماعية ومختبر علم اجتماع المعرفة، أشرف على دراسات الأنتروبولوجيا التطبيقية واستقبل تلامذة وباحثين من كل

البلدان[1].

ب–فهم النص:

1-تفكيك النص

– الاحتكاك لا يحدث بين الثقافات بل بين الأفراد.

– الأفراد الواهبون (معمرون، مبشرون، مغامرون) لا يمثلون ثقافتهم بكليتها بل سوى القسم الذي يسميه لينتون بالمركزي أي القطاع الثقافي المتصل بالمركز والدور المميز في المجتمع الكلي. هذا يجعل قسما من الثقافة غير معنية بالاستعارة أو الاحتكاك.

– حتى في هذه الحالة تكون الثقافة المستقبلة مجرد تجريد صنعته الأنتروبولوجيا.

– ما يوجد في الواقع ليس الثقافة التي هي تجريد بل الأفراد والذين لهم مراكز وأدوار مختلفة وبالتالي مواقف ومعايير للسلوك ومصالح خاصة.

– بعض الأشخاص على اختلاف جنسهم ووظائفهم يجدون مصلحة في قبول سمات الثقافة الواهية، وآخرون يرون فيها خطر كبير على هيبتهم أو سلطتهم.

وهذا يجعل بعض السمات المستعارة غير قادرة على تخطي قطاع من الثقافة المستقبلة وتبقى متكيسة في هذا القطاع من غير أن تمتد إلى الجموع.

– لكن في المقابل هناك سمات أخرى مستعارة من قبل القادة السياسيين يمكنها أن تنتشر وهذا بسبب مركز هؤلاء القادة. لكن يجب إعطاء الأهمية في الاستعارة للشبكات الاجتماعية أكثر من العناصر السيكولوجية كالاعتبار والهبات الكارزمية للأشخاص.

2–الكلمات المفتاحية: الثقافات، الأفراد، الاحتكاك (التثاقف).

3–الفكرة العامة: التثاقف ينتج عن الاحتكاك بين الأفراد وليس الثقافات.

4–الإشكال: هل التثاقف ينتج عن الاحتكاك بين الثقافات أم بين الأفراد؟

ج–المقالة

1) مفهوم التثاقف أمريكي الأصل، تطور في النصف الأول من القرن العشرين، في تفاعل مع التيار

[1]- بيار بونت وميشال إيزار، **مرجع سابق**، ص 277-278.

الانتشاري. وفي سياق امتداد الثقافة الغربية، الذي قاد عددًا من الأنتروبولوجيين إلى تحليل الاتصالات بين الشعوب. والتثاقف حسب التعريف الشائع هو مجمل الظواهر التي تنتج عن الاحتكاك بين الثقافات. هكذا فإن احتكاك الإسلام بثقافات غير إسلامية أدى إلى أسلمتها، نتحدث هنا مثلا عن الإسلام في ماليزيا وأندونيسيا الذي انتشر بواسطة التجار. لكن هنا يقوم الإشكال: هل الإسلام انتشر بواسطة الإسلام في ذاته أو ممثلا في شخص هؤلاء التجار؟ بعبارة أخرى هل التثاقف ينتج عن الاحتكاك بين الثقافات أم بين الأفراد؟

2) يرى باستيد أن التثاقف ينتج عن الاحتكاك بين الأفراد وليس الثقافات.

3) ليثبت باستيد أطروحته في التثاقف يقدم مجموعة من الأدلة. الدليل الأول يقوم على فكرة أن الواهبين (معمرين، مبشرين، مغامرين) لا يمثلون ثقافتهم بكليتها بل سوى القسم الذي يسميه لينتون بالمركزي أي القطاع الثقافي المتصل بالمركز والدور المميزين في المجتمع الكلي، وهذا يجعل قسما من الثقافة غير معني بالتأثير. والدليل الثاني هو أن الثقافة حتى في حالة الأخذ في الاعتبار هذا القسم المركزي من الثقافة، فهذه الأخيرة ليست سوى تجريد من صنع الأنتروبولوجيين، فما يوجد في الواقع ليس الثقافة بل الأفراد الذين لهم مراكز وأدوارا مختلفة وبالتالي مواقف ومعايير ومصالح خاصة.

والدليل الثالث هو أن الأشخاص على اختلاف جنسهم ووظائفهم هم الذين يقبلون أو يرفضون العناصر الثقافية المستعارة تبعا لمصالحهم ويترتب عن ذلك بعض السمات المستعارة تكون غير قادرة على تخطي قطاع من الثقافة المستقبلة وتبقى متكيسة في هذا القطاع من غير أن تمتد إلى الجموع. والدليل الرابع يقوم على فكرة أن بعض السمات الثقافية لأنها مستعارة من قبل القادة السياسيين يمكنها أن تنتشر وهذا بسبب مركز هؤلاء القادة ومقدار تأثيرهم في الطبقات الدنيا. لكن يجب مع ذلك إعطاء الأهمية للشبكات الاجتماعية أكثر من العناصر السيكولوجية التي يتميز بها الأشخاص كالاعتبار والهبات الكاريزمية.

4) قبل أن نبين صواب هذا الرأي أو مجانبته للواقع يجدر بنا أولا أن نعرض أشكال الاحتكاك. فهذا الأخير يحدث أولا عن طريق الهيمنة وفي هذه الحالة يكون مفروضا، أو يحدث بالطرق الودية كالتجارة مثلا. ثم هناك الاحتكاك الذي يكون بين جماعات ذات مرتبة متساوية أو مختلفة. وهناك احتكاك بين جماعات تختلف من حيث تعقيد ثقافتها المادية أو غير المادية أو الاثنين معا. أو عندما تكون الثقافات لها درجة متساوية من التعقيد. ثم هناك الاحتكاك الذي ينجم عن هجرة جماعة لها أسلوب حياة إلى مجتمع

آخر.

ويترتب عن وجود الاحتكاك المذكورة حالات من التثاقف كما بينها هيرزجوفيتش، الحالة الأولى عندما يكون التثاقف مفروضا أو إراديا، والحالة الثانية تنتج عندما لا توجد أي مساواة اجتماعية أو سياسية بين الجماعات. والحالة الثالثة لها ثلاثة بدائل:

– عندما تكون هناك هيمنة سياسية ولكن ليست اجتماعية.

– وعندما تكون الهيمنة سياسية واجتماعية.

–وعندما يكون السمو الاجتماعي لجماعة على أخرى معترفا به، من غير أن تكون هناك هيمنة سياسية[2].

بالرجوع إلى رأي باستيد يمكن القول أن هناك أدلة كثيرة تؤيده ويمكن أن نذكر دخول الإسلام إلى ماليزيا وأندونيسيا، فلم يتم فرضه بواسطة الهيمنة بل انتشر عن طريق التجار، ذلك أن المعاملات والسلوك الذي تحلى به هؤلاء التجار أي بسبب أدوارهم تم جذب الناس إليه. فالاحتكاك في هذه الحالة لم يتم بين الإسلام كثقافة وبين الثقافات غير الإسلامية بل تم بين أفراد.

يمكن أن نذكر أشكال الاستعارات الثقافية التي تتم نتيجة التأثير الذي يمارسه بعض الأشخاص المهمين في المجتمع، فيمكن للممثل المشهور مثلا أن يترك أثرا كبيرا في معجبيه ويجعلهم يتبنون سلوكياته وقيمه ومعاييره.

لكن مع ذلك لا ننكر دور الثقافات في التثاقف فهذا الأخير قد يتم بالإكراه أي بفرض قيم خاصة على المجتمع الخاضع. فعندما تكون مجموعة أكثر عددًا وأكثر تجهيزا من الناحية التكنولوجية تفرض تغيرات في أسلوب حياة شعب مغزو. وفي هذه الحالة نسمي تلك الجماعة، جماعة مهيمنة وثقافتها ثقافة مهيمنة. وحالات من هذا النوع ليست جديدة ولا تنتمي فقط إلى القرن العشرين حيث يمكن أن نشير إلى أشكال الاستعمار الغربي، وقبل ذلك ما حدث للجماعات المحلية بالبيرو التي غزاها الأنكا. وكذلك الهيمنة على القبائل الزراعية الأصلية لإفريقيا الشرقية من قبل الغزاة النيليين الرعاة.

5) وهكذا فإن التثاقف يعبر عن الوجه الدينامي للثقافات وكل الثقافات معرضة للتثاقف لأنه لا توجد جماعة معزولة. وهذا التثاقف ينتج عن الاحتكاك بين الأفراد وبين الثقافات وكذلك.

---

[2]- Melville Herskovits, **op.cit.,** p. 213.